الناس فى الحكايات

فرج ، ألفريد.
الناس فى الحكايات / تأليف ألفريد فرج. - القاهرة : الهيئه المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٧.
٢٠٢ ص

عرض
نبيل فرج
كاتب وناقد

كان ألفريد فرج (١٩٢٩ ــ ٢٠٠٥م) من الأدباء الذين يأتنسون بالحديث مع الناس البسطاء، كما يأتنس بالحديث مع الكتاب والفنانين والصحفيين من كل الاتجاهات والأعمار.

وربما كان ائتناسه بالحديث مع الناس البسطاء والمهمشين ، الذين لا يعرفون الفلسفة أو المصطلحات الفنية المعقدة ، يفوق إئتناسه بغيرهم من أصحاب الفكر والمكانة الرفيعة.

ولهذا كان الجلوس على المقاهي البلدية الفقيرة فى الأحياء الشعبية المزدحمة التى تُوضَع فيها الكراسي على الأرصفة أحب إليه من الجلوس فى الكافيتريات الراقية المغلقة فى فنادق الخمسة نجوم، التى لا تسمع فيها غير الهمس.

ولكن مع محبة ألفريد فرج لأجواء المقاهي فى الأحياء الشعبية لم يكن يكتب إلا فى بيته، على مكتبه، فى الهدوء الكامل، بعيداً عن كل ضجيج.

كما كان لا يجد غضاضة - وهو أسم لامع فى المسرح المصرى - في أن يحشر نفسه بين الناس في الصفوف الخلفية أو في أعلى التياترو، أو على الدرج الحجري حول منصات المسارح الأثرية، لأنه يجد فى هذا الوسط الصاخب بالحركة دفئاً و إثارة للذهن وتفتحاً للوعي، لا يتوفر في المقاعد الوثيرة فى الصفوف الأمامية، أو فى الأجواء الباردة الخافتة الإضاءة التى يُحسَب فيها لكل شيء حساباً دقيقاً لا يخرج عليه أحد.

يلفت نظره ويثير اهتمامه وسط الزحام فنان مجهول من أولئك الذين ينفخون النار،

أو يرتجلون حواراً مع الجمهور من حولهم فى فرقه شعبية متجولة، أكثر مما يلفت نظره أو يُثير انتباهه فنان مشهور يؤدي دوراً خالداً على منصات المسارح القومية في عواصم العالم.

وإذا وقف على كورنيش النيل يتأمل صفحته الممتدة فى الغروب ، لم يشغله هذا المنظر الساحر عن رؤية باعة الذرة المشوية والترمس والمرطبات.

بهذا التكوين الفطري الأولي و الصفات المكتسبة التى تقدم العامة، وفنون العامة على عِليَة القوم وفنون الخاصة. عاش ألفريد فرج الواقع المحيط به وتفهمه جيداً وتأثر به وكتب أدبه الذى يشعر فيه القارىء بنبض الحياة وحرارة الناس ودقة الملاحظة، وتلتقى فيه القيم الإنسانية للتراث الشعبي والفكري والتاريخي والحركة الوطنية بحضارة العصر.

من هذه الكتابات المعبرة عن عمق العلاقة مع الناس ومع التراث الثقافي العربي والغربي جمع ألفريد فرج فى صيف ٢٠٠٥م - قبل رحيله بشهور قليلة - طائفة من هذه الكتابات واختار لها عنوان "الناس فى الحكايات"، وقدمها إلى هيئة الكتاب بناءاً على اتفاق شفهي مع الدكتور ناصر الأنصارى رئيس الهيئة لنشرها فى "مكتبة الأسرة".

وتلا هذا الاتفاق الشفهي رسالة مخطوطة بقلم ألفريد فرج إلى رئيس الهيئة، قمت بتسليمها بنفسي إلى مكتبه، تتضمن إشارة إلى هذا الاتفاق، تحمل تاريخ أول مايو ٢٠٠٥م.

غير أن الهيئة، بعد رحيل ألفريد فرج، نقضت هذا الاتفاق، ونُشِرَ الكتاب نشراً عاماً، وليس فى "مكتبة الأسرة".

وعلى أية حال فسواءاً نشر الكتاب كما أراد المؤلف ، أو نشر كما أرادت الهيئة، فلم يعد هناك فائدة إلا أن يُعاد طبعه مرة أخرى فى هذه المكتبة تحقيقاً لرغبة مؤلفه.

وكل ما يمكن أن يُقال الآن إن الكتاب نُشر، وأصبح بين يدي القراء إذا بحثوا عنه فى مكتبات الهيئة، بدلاً من أن يصل إليهم مع باعة الصحف. فى ظل هذا المناخ الراهن المُعادي للثقافة والمثقفين والذي لم يسلم منه كاتب بوزن ألفريد فرج.

ولأن الفن ليس ملكاً لأحد دون الآخر، وإنما يملكه ويطلبه ويتذوقه كل الناس، يقترح ألفريد فرج فى كتابه أن يكون لهؤلاء الناس الذين لا يعرفهم أحد الحق فى توجيه الفنون، وألا يقتصر هذا الحق على فئة المثقفين والنقاد وحدهم، خاصه وأن بين هؤلاء الناس من يفوق بفطرته السليمة وحسه المرهف أهل الاختصاص من هؤلاء المثقفين والنقاد، أصحاب العقائد الثابتة.

ومع هذا يجب أن نذكر أن من يُجيد مخالطة الناس مثل ألفريد فرج، ويعرف

كيف يضع يده بدقة على مواطن الفطنة والغنى والصفاء في نفوسهم، يجيد في الوقت نفسه لقاء العظماء.

ومن هؤلاء العظماء في كتاب "الناس في الحكايات" الممثل والمخرج الفرنسي مارسيل مارشال الحائز أباً عن جد على لقب بارون، والشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي الذى رصد الفريد فرج مرض الغربة الذى عانى منه هذا الشاعر، حتى وهو في وطنه أو مع أصدقائه، كما عانى من هذا المرض العُضال الكاتب نفسه وكل المبدعين من هذا الطراز الذى يمثله البياتي، وتعرضوا مثله لبطش النظم المستبدة في بلادهم، بسبب معاداتهم لهذه النظم، والتزامهم بالتعبير عن هموم وأحلام الناس، وانحيازهم الكامل للعدل والحرية.

والناس في كتابات ألفريد فرج، ما جُمِعَ منها في هذا الكتاب أو لم يُجَمع ، قد يكونون مجرد أسماء من أولاد البلد لا تثير اهتمام من يسمع بها.

ورغم هذا يطلب الكاتب أن تُقام لهم التماثيل في أرقى أحياء القاهرة، مثل حسين شلبي عجوة الذى يُعد أول مخترع مصري في العصر الحديث، صنع في عهد محمد على مضرباً للأرز يُدار بثورين بدلاً من أربعة ثيران، مما دفع محمد علي إلى تكليفه بإنشاء مدرسة للهندسة عُرفت بعد ذلك باسم مدرسة المهندس خانة، ثم كلية الهندسة.

وقد يكون هؤلاء الناس في الحكايات المهندس حسن فتحى شيخ البنائين المصريين؛ الذى يُعرف في أنحاء العالم بنظريته في بعث حرفة البناء الشعبي بخامات البيئة، ووفق تقاليدها وبأيدي أهلها الذين لا يحفل بهم أحد في ظل التوسع العمراني المكتسح، والأبراج الزجاجية، وازدحام المدن.

وبين حسين شلبي عجوة في أول فصول الكتاب ، وحسن فتحي الذى يختتم الكتاب صفحاته به نلتقي بعدد كبير من الشخصيات والحكايات من أنحاء العالم أثارت انتباه الكاتب، مثل حكاية العالم الرياضى قيراطوسين في مكتبة الإسكندرية القديمة الذى قاس محيط الكرة الأرضية في القرن الثالث الميلادي، ولم يختلف قياسه عن القياس الحديث بأدق الأجهزة إلا بفارق طفيف جداً لا تتجاوز نسبته غير خمس عشرة في المائة فقط ، وهذه نسبة هينة جداً إذا وضعنا في الاعتبار فارق الزمن وطول المحيط.

ومن المعروف أيضاً في عصر المأمون، في القرن التاسع الميلادي أنه ظهرت في بيت الحكمة أسرة علمية تتألف من ثلاثة أخوة يُدعون محمد وأحمد والحسن أبناء من يُدعَى موسى بن شاكر، قاموا بقياس محيط الأرض، وتواصلوا أيضا إلى رقم قريب من الرقم الصحيح.

وفى فصلين متتاليين عن الكاتب

الأيرلندي برنارد شو نتعرف على شخصيته الساخرة، وعلى عاداته فى القراءة والكتابة وسماع الموسيقى وتنسيق الزهور بيديه، كما نتعرف على أعماله المسرحية وأسلوبه الفني، وعلى الشهرة التى تلكأت فى الوصول إليه بعد أن تجاوز الأربعين.

يصحبنا الكاتب فى زيارة لبيت برناردشو المتواضع فى قرية إيوت سان لورانس بالريف الإنجليزي على بعد عدة أميال من العاصمة لندن.

وكان هذا البيت قد بُني بالطوب الأحمر فى ١٩٠٢م، وأقام فيه برنارد شو ابتداء من سنة ١٩٠٤م، وقد أوصى بتحويله إلى متحف يحوى أثاثه وكتبه ومقتنياته، كما كانت فى حياته.

ويتطرق المؤلف إلى ثقافة برنارد شو التي حصلها من مكتبة المتحف البريطاني ، واعترافاً بفضل هذه المكتبة فى صياغة ذهن برنارد شو وتغذية روحه خصها فى وصيته بثلث العائد المادي لمؤلفاته والثلثين للمتحف القومي الايرلندي والأكاديمية الملكية للفنون لمدة ٢٩ سنة تكون تالية لمنح هذه الحقوق لمدة ٢١ سنة للأبحاث العلمية واللغوية، وبعدها تسقط هذه الحقوق، وتصبح المؤلفات ملكية عامة للإنسانية.

ومن هذه الشخصيات أيضاً فوزية مرعي أو فوزية المسرحية التى تملك فى متجرها خزائن وسحارات تمتلىء بالملابس والاكسسوارات، والنصوص المسرحية لكل العصور ، تؤجرها للفرق المسرحية المحترفة وفرق الهواة لاستكمال عناصرها المادية ، دون أن تنال من الشهرة مانالته فنانات لامعات من جيلها مثل روز اليوسف وزينب صدقي وفاطمة رشدي، وعقيله راتب.

إنها مثل الكومبارس الذى يقف فى الظل بعيداً عن الأضواء ، ولولا مثل هذا الفصل فى الكتاب لغمرها النسيان رغم الدور الهام الذى تقوم به.

ولا يستطيع القارىء أن ينسى من هؤلاء الناس إبراهيم مطر قهوجي المسرح القومي فى الخمسينيات والستينيات، الذى عاصر بناء هذا المسرح على الطراز العربي من سنة ١٩١٧م إلى سنة ١٩٢٠م وكان له رأيه الصحيح فى نوعية العروض التراثية من ألف ليلة وليلة وغيرها التى تتلاءم مع عمارة هذا المسرح ، ومع رؤية مؤسسة طلعت حرب تثبيت للهوية الوطنية.

ولهذا لم يكن غريباً أن يطلب هذا القهوجي رسمياً أن يكون عضواً فى مجلس إدارة المسرح القومي، بصفته صاحب رأي ومصلحة فى ازدهاره بالعروض المسرحية.

ولأن القهاوي الشعبية من الأماكن المحببة جدا لأفريد فرج، يُفرد لمقهى الفيشاوي بخان الخليلي فصلاً من أجمل فصول الكتاب، يتحدث فيه عن ليالي المقهى

والأجواء المحيطة به التى تعبق بالعمق الروحي ، ويذكر أسماء من يتردد عليه من الكتاب والفنانين والصحفيين ، وما كان يدور على موائده من حوارات وسجالات حول الشعر والمسرح والثقافة وأثرها فى تطوير حياتنا الفنية.

ويلاحظ القارىء بسهولة أن الطابع القومي الذى بُني على أساسه المسرح القومي كما ذكره ألفريد فرج، هو نفس الطابع الذي تبناه المهندس حسن فتحي فى نظرية البناء المحلى، ويتمثل أيضاً هذا الطابع فى الدعوة للثقافة الوطنية وفى الدفاع عن الفنون والآداب الشعبية التى يرى البعض أنها مهددة بالتغريب اذا تخلينا عنها، ولم نتمسك بما تنطوي عليه من قيم أصلية، لا تتعارض فيها القومية العربية مع الوطنية المصرية، أو العروبة مع الهوية، كما لا تتعارض النزعة المحلية مع العالمية.

وإذا كان للكتب العربية أصول وأنساب تنتمي إليها، فإني أذكر هنا - ونحن نتحدث عن كتاب ألفريد فرج - كتاب يحي حقي "ناس فى الظل" (كتاب الجمهورية ، يوليو ١٩٧١م). ولو أن الناس فى حكايات ألفريد فرج لا يقتصرون على الذين عاشوا فى الظل، وليس لهم أثر فى الذاكرة، بل شمل إلى جانبهم من استأثروا بالأضواء مثل : عبد الرحمن الجبرتي، وأحمد فارس الشدياق، وبرنارد شو .. وكتاب "الناس فى الحكايات" قبل هذا كله وبعده ، يؤكد أن أهمية ألفريد فرج فى تاريخنا الأدبي لا تختصر فى أعماله المسرحية، وإنما تتعداها إلى كتاباته الصحفية العديدة فى التاريخ والأدب والفن والنقد التي لم يتوقف عنها منذ أن بدأ الكتابة فى مطلع الخمسينيات من القرن الماضي ويمثلها هذا الكتاب الذى يتضمن جانباً لم يكن مقصوداً بحد ذاته من سيرته الذاتية فى التعليم والثقافة والصحافة، نطالعه عرضاً فى حديثه عن هؤلاء الناس الذين التقى بهم أو قرأ عنهم فى هذه المجالات، وتحدث عن نفسه فى سياق حديثه عن هذه الشخصيات.